عشقت جنية..

فاطمة عمارة

هذه أنا..

بعين صقر أبصر.. بأذن مرهفة أنصت..وبخيالٍ واسع أغزل حياة على ورق

عشقت جنية

عن العيون مخفية

كلماتها.. تعويذة سحرية

فتشت عنها بر وبحر

لقيت الجنية ماهي إلا

إنسية

فاطمة عمارة

عشقت جنية

يصعد درجات السُلم بتثاقل ملحوظ، لا شيء يسير على هواه منذ وفاة والدته، كأنما توقفت حياته عند تلك اللحظة منذ شهرين مضوا، هل هو إحساسه الداخلي ما يُوحي له بهذا أم حقًا تكالبت عليه الأمور! بنفس الرتابة فتح باب شقته بالطابق الرابع، يحاول التقاط أنفاسه المتقافزة، كاد أن يُغلق الباب، ليسمع صوت المصعد يعاود العمل، استشاط غاضبًا، ألم يكن مُعطلاً وقت عودته! لم يستغرق دهرًا في صعود تلك الطوابق الأربع ودرجاتها الثمانون لقد أحصاها وحفظها فهو الآن بات يستخدمها بشكل يومي، تنهد وأغلق على نفسه الباب، إنه يتيقن يومًا بعد يوم أن بركة حياته رحلت برحيلها.

كعادته وضع حقيبة حاسوبه على مقعد جوار باب غرفته ثم اتجه إلى المطبخ ليترك وجبته اليومية الجاهزة على مائدة صغيرة، يملأ الغلاية ويضعها على الموقد ثم يتجه إلى غرفته ليبدل ملابسه ويستحم في الحمام الملحق بها، يشعر إنه تخلص من ما علق به من أفكار سلبية، فأموره كلها ستتحسن فأمه لم تحرمه من دعائها، عاد ليصب كوب الشاي ويحمل صينية طعامه ويتجه إلى

الشرفة الرئيسية، فهو أخذ قراره والماء ينهمر فوق رأسه أن يُغيِّر عادته القديمة، مقعدان من البامبو تتوسطهم مائدة مُستديرة صغيرة فرشهما نظيف فقد حرص أن تستمر تلك السيدة الطيبة التي كانت تأتي لأمه لتنظيف المنزل في عملها كما كانت، التقط نفسًا عميقًا من هواء "العصاري" المُنعش، لا يعرف هل يجوز أن يُطلق عليه هذا الإسم وقد شارفت الشمس على المغيب، لا يهم الآن المهم أن يجلس ويستمتع بوجبته.

ظلَّ ذهنه مشغول به، يدور داخل نفسه ومشاغله، تنهَّد وهو يضع كوبه فارغ لينتبه لصوت رخيم يقرأ بهدوء، زاد من إنصاته علَّه يعرف من يقرأ بمثل هذا الصوت وإن لم يكن مرتفعًا فهو واضح له، ليجدها تُنهي ما تقرأ وتَعد من يستمع لها إنها ستُكمل في نفس موعدهما كل يوم ولن تنسي أبدًا ثم قبَّلته قبلة طويلة بصوتٍ عالٍ آثار في نفسه الشكوك، وقف مستندًا إلى سور شرفته يحاول أن يرى الشرفة أسفله، وباءت محاولته بالفشل بعد تغيير موضعه أكثر من مرة، انتهى صوتها وقُبلتها ليعم الصمت المكان لاشيء أكثر من ذلك.

ما أكد له أن الصوت يأتيه من تلك الشقة إنه يرى الصف المجاور له ولا أحد هناك والصوت قريب من الصعب أن يكون

من الطوابق الأولى، نفَّض عن رأسه هذا الفضول فما يعنيه من الصوت وصاحبته يكفيه ما يحمل فوق كتفيه من مشاغل.

***

عاد إلى نظامه المُعتاد وأنهى يومه ليستقبل وسادته بشوق، يتمنى الليلة نومٍ هانئ فقده منذ مدة لازمه الأرق محل الأحلام السعيدة، أغمض عينيه لينتبه على جرس مُنبهه المعتاد، مد يده يُغلقه وانتابته دهشه كبيرة لقد نجح هذه المرة في الحصول على قسط من النوم أراح جسده المنهك وعقله المشغول دائمًا، وبنشاط أضاعه في الشهور الماضية استعد ليوم جديد، حدَّث نفسه أن قراراته الجديدة للتغيير ظهرت آثارها عليه، وبذات السعادة توجَّه لعمله يستقبل كل من يُقابله ببسمة كانت غائبة عن شفتيه، وعلى غير المعتاد سار كل شيء دون أي مشاكل وأتمَّ ما بين يديه بسلاسة منحته دفعة لاستمرار تفاؤل بدأ به يومه.

وجد المصعد في انتظاره، ليحمله إلى شقته بسهولة، حرص على القيام بكل شيء فعله في أمسه بنفس الترتيب وخرج للشرفة يَعُب رائحة أزهار الياسمين التي يحملها الهواء من شجرة أمام مدخل المنزل، وضع طعامه على المنضدة ليبدأ تناوله في سلام محافظًاعلى تلك البسمة المرسومة على وجهه، حمل الهواء مع

رائحة الزهور صوتها الذي تلاعبت به فأصبح حنونًا، شعره يمس روحه ثم تحول إلى صوت عميق ففهم مما سمعه أنها تُغيره حسب الأشخاص في رواياتها، أغمض عينيه وسافر مع قصتها المروية لم يشعر بمرور الوقت حتى أعلنت نهاية وقتها وختمت حديثها كما حدث سابقًا قبلة طويلة ووعد بلقاءٍ في نفس الموعد.

ترددت كلماتها بين جنبات عقله، شاغلة إياه عمَّا كان يفعله، أتمَّ ما عليه ليرافقه الصوت في أحلامه، الراحة لازمته عند استيقاظه وربط بينها وبين رواياتها وعندما أمعن التفكير أعاده لصوتها المريح، أصبح حريصًا أن يصل قبل موعد قراءتها، الذى قدَّره بساعة حسب المرات التي استمع لها خلسة دون أن تعرف، أعد المجلس بما يلزم من وسائل للراحة، هاتفه مغلق يقبع وحده جوار حاسوبه بعيدًا عنه في غرفة نومه، موعده المقدس مع صوتها لا يقطعه شيء، ولا يلغيه أي عمل دائمًا هو الأهم حتى أثار شكوك أصدقاءه أنه تعرَّف على إحداهن ويخشى عليها منهم، اكتفى بابتسامة لا معنى لها ردًا على ضحكاتهم المُشاغبة فهو لا يريد أن ينكر فيصبح كاذبًا، هو ارتبط بالفعل بإحداهن أو بمعنى أدق صوتها.

رسم لها صورة في ذهنه بل عدة صور حسب أصواتها المختلفة إلا أنها جميعًا اشتركت في ملامح ناعمة رقيقة كصوتها

لا يفرق عنده لـون شعرها أوطولـه ولكـن عينيهـا بالتأكيـد مـرآة لروحها الشفافة، تلك الروح لا يجوز أن تكون إلا في جسد دقيـق قد يكون ممشوق أو أهيف، فكَّر أن يلتقيها ليتأكد من صحة تخيله ولكنـه تراجـع مـرات عـدة لا يريـد أن تـضيع صـورتها الجميلـة المرسـومة داخلـه إن خالفتهـا الحقيقـة، أصـعب الأيـام هـو يـوم الراحة الأسبوعية من عمله، فهو يمر ببطء كسلحفاة، قـام بتغيير ترتيـب أثـاث غـرف المنـزل كلـه عـدة مـرات حتـى يقتـل وقـت الإرتقاب، ثم قرر في إحدى الأيام أن يشترى مكتبة يُركبها بنفسه ثم ينظر فيما بعد في الكتب التي ستشغلها.

انقـضى الـصيف وأيامـه بـسرعة ليعقُبه خريـف قـصير بـدفء نهاره ولمسات برودة لياليه كأنه يُذكَّرنا بأن الشتاء يطرق الأبـواب، حقيقة كانت غائبة عن ذهنه ولكنه انتبه لتوابعها تلك الأمسية التى غلَّف المرض نبرات صوتها بشكل واضح وتخلل جمل حكاياتهـا سـعال مـزعج، مـاذا يفعـل الآن؟ صـوتها وشـغفه بـسماع قـصصها جعل لحياته شكل جديـد، كـأن هنـاك أمـر سـحرى مـع كـل روايـة سـمعها، أنهـى معهـا ثـلاث روايـات، تخيـل نفسه بطـل كـلٌ منهـا، تخلَّص من أحزانه وامتلأ بأمل جديد.

انتبه من أفكاره على جملتها التى تختم بهـا حكيهـا، لا لـيس هناك قبلة اليوم ولكـن اعتـذار عـن الحكايـة ليـومين حتـى تـشفى،

كمن لسعه عقرب، قفز واقفًا وبلا أي تفكير جديد اتجه إلى باب شقته يفتحه وينطلق إلى الطابق الثالث ليلحق بها لحظة خروجها، ولكنه لم يجدها، السلم خالي ولا صوت فيه، وباب الشقة مغلق، عاد يجر أذيال الخيبة ليغلق بابه عليه وهو يحمل على كتفيه هم جديد، ستغيب ساحرته يومين.

❀❀❀

قطرات المطر غطَّت نظارته الطبية مُعلنة دخول الشتاء بقوة، رفع وجهه إلى السماء كمن يشكو حاله ثم تنبَّه إلى معنى ما يحدث فانطلق عائدًا إلى المنزل فقد حان الوقت، ولا يشاركه جلسته في الشرفة سوى بعض القطرات المُتسللة إلى الداخل، بدأ في السير جيئة وذهابًا كالأسد في محبسه، ثم قرر النزول إلى الشارع حتى يصرف تفكيره عنها، لم يهتم بانتظار المصعد واستخدم الدرج لتلتقط أذنيه صوتها، وقف جوار شقة جاره يسترق السمع والإنصات، إنها هي لم يكن يعتقد أن هناك من يخرج في مثل هذا الجو الممطر إلا أنها دائمًا تذهله، انتبه على ختام حديثها وإنه ما زال ذالك المُتلصص على جاره.

عاد إلى شقته متخم كمن حصل على وليمة كاملة، روحة مُشبعة بالراحة، لم يفعل شيء سوى أن يندس تحت أغطية فراشه

بملابسه كما هو لم يخلع عنه غير معطفه، وابتسامة طفل على وجه نام يحلم بها.

تعلق بها لا ينكر، أحبها.. قلبه يؤكد نعم وعقله ينكر عليه ذلك فمن يحب شخص لسماعه صوته! وهكذا استنكر فعله صديقه المقرب بل أكد إنه مجرد افتتان سيزول مع أول لقاء خاصة عندما تخالف صورتها المرسومة في ذهنه.

"لا يعرف صديقي أن لها في رأسي مئات الصور وقد يكون أكثر" حدث نفسه مطمئنًا لها، لقد وصف شاعر العصر العباسي بشار بن برد حالتي في إحدى قصائده قائلاً:

قالت فَهَلاَّ فدَتْكَ النفس أَحْسنَ مِن
هـذا لمـن كـان صـبّ القلـبِ حيرانـا
يـاقومِ أذْنِـي لِـبعْضِ الحـيِّ عاشـقةٌ
والأُذْنُ تَعْـشَقُ قبـل العَـين أَحْيانـا
والأُذْنُ تَعْـشَقُ قبـل العَـين أَحْيانـا
أَضـرمتِ في القلـب والأَحـشاءِ نِيرانـا
فـأسمعيني صـوتاً مطربـاً هزجـاً
يزيـد صـبًّا محبّـاً فيـك أشـجانا

فهل سيأتي اليوم الذي أسالكِ فيه وتجيبيني؟ "حرماني من صوتها كاد يُذهب عقلي" هكذا أعلنها صريحة لصديقه.

فعزم أمره على التحري عنها، بدأ بحارس العقار فسأله عن قاطني الشقة أسفل شقته، علم منه إنه وكيل وزارة على المعاش عجوز شارف السبعين، فاستفسرعن الفتاة التي تتردد عليه كل يوم أنكر الحارس الأمر وأكد أن لا أحد يزوره فابنه الوحيد مات وزوجته منذ سنوات عدة ولا أقارب له يزوره ويستعين بزوجة الحارس لنظافة الشقة وطباخ يأتي مرة كل أُسبوعين يُعد له وجباته.

زادت حيرته، فهو لم يتخيل الصوت، وسمعه عبر باب الشقة الخارجي وليس فقط من الشرفة، أراد التأكد بنفسه فقد تكون الفتاة تأتي والحارس يشتري بعض طلبات السكان، وقبل موعد الحكاية بعشر دقائق طرق الباب ووقف ينتظر، خطوات ثقيلة مع صوت نقرة عصاة خشبية تطرق الأرض بانتظام تقترب من الباب، سعال خشن شديد أعقبه صوت المزلاج يفتح، اعتدل في وقفته بعد أن كان قريبًا برأسه يستمع إلى ما يجري بالداخل ورسم على وجهه ابتسامة ثقة ليستقبل العجوز بود.

تحيات معتادة وتعريف بنفسه، ليمتلئ وجه العجوز بالبشر مرحبًا بزائره المفاجئ، دعاه للجلوس في الغرفة ذات الشرفة التي يستمع منها إليها، تجاذب الحوار معه وكان سعيدًا أنه استطاع أن يُسري عنه في وحدته، سمع منه حكايات عن صداقة أبيه وابنه

الراحل وطرائفهم في الصغر، سرقهم الوقت ولم ينتبه فاستأذن ليرحل ويتركه يرتاح قليلاً، وما إن وصل إلى غرفته تذكَّر الفتاة فعاد بسرعة وقبل أن يطرق الباب سمع صوتها تسترسل في سرد حكايتها الرائعة، وكعادته سرح في صوتها وتاه في تفاصيل الحكاية لينتبه مع ختامها، خجل أن يُفتضح أمره فارتقى الدرج كل اثنين معًا.

آثر انتظار يومين قبل أن يقتحم خلوة العجوز مرة أخرى، فقد عاد له أرقه وتوتره، هذه المرة اختار أن يزوره بعد أن يتأكد من وجودها، وبالفعل انتظر حتى مضت ربع ساعة من الموعد ووقف ينصت من خلف الباب ليتأكد قبل أن يدق الجرس، تنهد براحة فهي بالداخل وحانت اللحظة الحاسمة طرق الباب ووقف يهندم ملابسه ويعيد تصفيف شعره حتى سمع المزلاج يفتح في بطء فرسم ابتسامة لعلها تُدارى قلقه.

سقط من سماء أحلامه وانطفأ بريق السعادة في عينيه ما إن خطَّت قدمه غرفة الجلوس المعتادة ووجدها فارغة إلا من كوب شاي نصف ممتلئ وبطانية يستخدمها العجوز لتدفئة ساقيه، جلس يستجمع قوته ليركز في حوار لم يفهم منه شيء، كل ما في رأسه أين ذهبت؟ لقد سمع صوتها كانت هنا، أصابه التردد أيسأله مباشرةً، هل يخجل من وجودها فيخفيها؟ أم هي مجرد شبح يشاركه السكن؟

اصطحب حيرته يجرجر قدميه صعودًا إلى حيث يدفن أفكاره التي سافرت في كل مكان، وقع الأمر في يديه، لا يعرف كيف يتصرف الآن، فالحارس أكد على وحدة الرجل وهو رأى بعينيه خلو الغرفة من أي صحبة، ولكنه سمع صوتها، يحمل الهواء عبقها مع تلك النبرات الهادئة، الرقيقة، العذبة، الشجية لها، لا يمكن أن تكون محض خيال، تتعاقب الأيام والليالي عليه دون أن يجد حلًا لمعضلته.

حمل معه بعض الأطعمة الخفيفة وعاد يطرق باب العجوز عازمًا على سؤاله بشكل مباشر، فلا يوجد شيء أفضل من الصراحة، ترك الحديث يحملهم كيفما يشاء، ثم نظر في عينيه ينتظر صدق ما يجيب سؤاله به:

- جداه، لقد سمعت بمحض الصدفة وكنت جالسًا في شرفتي فتاة تقرأ لك الكتب بانتظام، مالي لا أراها عندما آتي لزيارتك؟

صمت الجد ولمعة مكر تتراقص في عينيه، فسقط قلبه بين أقدامه هي شبح لا محالة، تلعثم وهو يُغير السؤال:

- أهي شبح؟

لتنطلق ضحكات العجوز حتى تدمع عيناه، ويصمت هو لينتهي الجد من وصلة الضحك التي أثارت حنقه وترجمه وجهه

في عبوس واحمرار واضحين ليجيبه بعد برهة:

- إنها حفيدتى الصغيرة، حصلت على منحة لاستكمال دراستها بالخارج، ولكنها كانت معتادة على أن تقرأ لي كل يوم لمدة ساعة بعد أن أنام وأستيقظ العصر، نتخذ مجلسنا بالشرفة ويتوسطنا إبريق وكأسين من الشاي، وعدتني حبيبتي أن لا تنقطع عن تلك العادة فترسل لي كل يوم تسجيلاً لما قرأت مدته ساعة، وأنا أستمر في طقوسنا ها هنا في تلك الشرفة.

ألقى إجابته على مسامعه، وهو سكن حد الجمود، عيناه ثابتتان على عيني الجد، ولا يوجد دليل على أنفاسه الهاربة حرَّك الجد يده تجاه الطاولة فانتقل نظره معها، ليراه يتناول هاتف محمول على أحدث طراز ثم يضع نظارته الطبية وببعض اللمسات التي تعرف طريقها جيدًا ينساب صوتها بوضوح، بدأ في التنفس حينها أرجع رأسه للخلف وأغمض عينيه على دموعها، خانته واحدة تُعلن تمردها وتمسُّكها بأمل عودة الحفيدة لن يطمع بعاجلًا فيكفيه عودتها آجلًا، وعليه في انتظارها أن يعتبرها شهرزاده تُطرب أذنيه بالحكايات!!

و أهو ده اللي صار!